

أضواء جديدة على الوجود المغربي في مصر عبر عصورها الإسلامية

أحمد عبد اللطيف حنفي

ذ. التاريخ بكلية الآداب جامعة حلوان مصر.

تمهيد: سبق لي في دراستين سابقتين عن الوجود المغربي في مصر عبر القرون التسعة التي تشكل الحقبة الإسلامية في تاريخها (21هـ - 923هـ) أن لاحظت أن هذا الوجود انحصر في تيارات ثلاثة سبق بعضها بعضاً في الظهور، وعلا بعضها على بعض قبل أن يعود إلى انحساره. وهي: -

1- جماعات المغاربة المستقرين في صحراء مصر الغربية من بربر لواتة وهوارة، الذين تداخلت مناطق سكناهم فيما بين غربي مصر وأول ليبيا حول خط طول 25 شرقاً حالياً. وهؤلاء تشير الروايات التي عالجت الفتح الإسلامي لمصر إلى وجودهم بتلك النواحي منذ الأيام الأولى للحكم الإسلامي. وبعمق كبير في الساحل الشمالي الغربي لمصر، حتى حدود الإسكندرية وأرض البحيرة والقيوم، بل في الواحات كذلك. وبالتالي كانوا قاسماً مشتركاً في العديد من الحوادث السياسية والاقتصادية والاجتماعية منذ عصر الولاة بمصر وحتى نهاية حكم المماليك.

2- جموع المغاربة الموالين للفاطميين، وجُلهم من بربر كتامة ومن انضم إليهم من قبائل البربر المختلفة كمصمودة. وهؤلاء كان من الطبيعي أن يظهروا على سطح الأحداث في مصر بظهور الدولة الفاطمية، ويتلاشوا كذلك بمجرد سقوط تلك الدولة على أيدي الأيوبيين، إلا من انسلخ منهم عن تلك الدولة وأثبت حسن ولانه للنظام الأيوبي الجديد.

3- وأخيراً جموع الحجاج والدارسين وأصحاب الحرف من أهل المغرب قاطبة والأندلس، الذين قدموا مصر في طريقهم لأداء فريضة الحج والاستزادة في علوم الشرع الإسلامي. وهؤلاء بدأوا يعربون عن أنفسهم كتيار سني مالكي محافظ منذ منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً، كدليل على بدايات تحول أهل المغرب والأندلس إلى الإسلام والعروبة آنذاك، أو ما يعرف بنجاح عمليات الفتح الحضاري للمسلمين هناك. وما زلنا نلمس آثار وجودهم بمصر حتى وقتنا الحاضر، ليس فقط في مجالات العلم بل في السياسة والاقتصاد والاجتماع كذلك.

هذا، وقد مر الوجود المغربي في مصر - بتياراته الثلاثة - بمراحل زمنية ثلاث، هي:

الأولى:- تشمل القرون الثلاثة الأولى للهجرة من الفتح الإسلامي حتى سقوط مصر في أيدي الفاطميين (358هـ/ 969م). وقد اتسم الوجود المغربي خلالها بالبطء في تأثيراته لطغيان التأثير المشرقي الإسلامي العربي، الذي كان تياره الحضاري يسير تجاه المغرب والأندلس. وبعبارة أخرى كان المغرب الإسلامي آنذاك في مرحلة إعادة صياغته حضارياً على أيدي المسلمين العرب.

وانعكس هذا على جماعات المغاربة من بربر لواتة وهوارة المستقرين في صحراء مصر الغربية الذين عاشوا حياتهم غير ميالين للاشتراك في الأحداث التي سادت العاصمة. وكذلك على جماعات الحجاج والدارسين وأصحاب الحرف المغاربة والأندلسيين الذين تأخر وفودهم إلى مصر إلى قرب انتصاف القرن الثاني الهجري كما ألعنا. ومن معالم هذه الفترة كذلك، أن الفاطميين بعد قيام دولتهم بالمغرب آخر سنة 296هـ (909م) قد سعوا لبسط سيطرتهم على مصر، وذلك من خلال أعوانهم الذين انتشروا في أنحاء البلاد منذ مطلع القرن الرابع الهجري (10م). كما أن رعى الصراع الدائر بين الفاطميين بالمغرب والأمويين بالأندلس قد انتقلت إلى مصر، بعد أن سعى الأمويون من خلال وافديهم الأندلسيين في القيام بدعايات مضادة لدعايات الفاطميين الشيعة.

الثانية: وتشمل الوجود الفاطمي في مصر حتى سقوط دولتهم في سنة 567هـ (1171م). وتمثل هذه الفترة ذروة الوجود المغربي في مصر؛ ذلك أن الفاطميين عملوا على إعلاء شأن المغاربة أعوانهم على حساب الطوائف الأخرى. ومن ناحية أخرى، فإن الهجرات البربرية الجديدة التي شهدتها صحراء مصر الغربية آنذاك قد دفعت بالعناصر اللواتية القديمة للتحرك صوب الشرق حيث سكنت أرض الدلتا ومصر الوسطى، مما عد تدعيماً للوجود المغربي في عمق الديار المصرية.

كذلك، فإن التطور الحضاري الذي انتاب المغرب الإسلامي - حينذاك - قد انعكس على جماعات الوافدين إلى مصر من الحجاج والدارسين وأصحاب الحرف المغاربة والأندلسيين الذين ازداد إنتاجهم الأدبي والمادي. وهو ما عبر عنه د. سعد زغلول عبد الحميد [الأثر المغربي الأندلسي في المجتمع السكندري، ص 212] بقوله:- "فكان من الطبيعي أن يكون مسار التيار الحضاري متوازياً مع مساق التيار السياسي الفاطمي من المغرب إلى المشرق". وذلك لأن "عواصم المغرب والأندلس قد اشتدت سواعدها حضارياً وسياسياً في القيروان وقرطبة وإشبيلية وفاس".

الثالثة:- وتشمل القرون الثلاثة الأخيرة ونصف القرن التي تعادل دولة الأيوبيين والمماليك. ومن أبرز معالم هذه الفترة، ذلك التيار الحضاري "الذي حملة المهاجرون الأندلسيون - الذين اضطروا إلى الجلاء عن ديارهم أمام عنف الهجوم

الأسباني - وعمرُوا به سواحل المغرب وبعض دواخله من مراكش إلى تونس ووصلوا به إلى مصر وشواطئ الإسكندرية". حسبما أكد د. سعد زغلول عبد الحميد. ويبدو أن ذلك المد كان بمثابة التعويض عن انحسار دور جماعات المغاربة الموالين للفاطميين والذي اقترن بسقوط الخلافة الفاطمية في مصر. بينما استمر التغلغل الاجتماعي لبربر المنطقة الغربية في عمق ديار مصر، بتأثير الهجرات البربرية الجديدة التي شهدتها المنطقة. الأمر الذي أكدّه النابلسي والي إقليم الفيوم زمن السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب بشأن استيطان بيوتات من لواتة في إقليم الفيوم. وكذلك المقرئ في البيان والإعراب بشأن نزوح بربر هوارة إلى صعيد مصر للإقامة هناك بدلاً من ساحل مصر الشمالي الغربي زمن الظاهر برقوق المملوكي.

وقد لوحظ أن المرحلتين الأوليين (من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي) تشكلان معاً مرحلة طبيعية واحدة بالنسبة للوجود المغربي في مصر. بينما شكلت المرحلة الثالثة والأخيرة بمفردها (خلال عصر الأيوبيين والمماليك) وحدة قائمة بذاتها.

مدلولاته السياسية: لاشك أن أهم مدلولات الوجود المغربي بالنسبة للحياة السياسية في مصر هو ذلك التواصل الواضح والمستمر بين شعوب وحكومات الإقليمين. ونستعير هنا مقولة فقيه مصر ومفتيها على المذهب المالكي والشافعي ومجدد الإسلام على رأس القرن الثامن الهجري تقي الدين ابن دقيق العيد (ت 702هـ) معبراً عن ثنائه على أهل المغرب جملة وإحتفائه بتلميذه التجيبي السبتي صاحب الرحلة، عند لقائه به قائلاً: "أنا أحب المغاربة وأعتنى بهم وأسميهم عشاق مكة". وقد تأثر التجيبي السبتي كثيراً بهذه الحفاوة وصار يردد: "ولو لم يُركب ثبج البحر (أهواله) إلا للقاء هذا الإمام الفاضل، لكانت الصفقة رابحة والوجهة ناجحة"⁽¹⁾.

ومن الملاحظ أن المغرب الأقصى - الذي سنقصر حديثنا عليه - منذ أن بدأ في التعبير عن نفسه سياسياً، وتوجهات حكامه إلى مصر لها نصيب كبير لديهم. وهماي مراسلات الإمام إدريس الأول (172-175هـ) إلى أهل مصر يذكرهم فيها

1- التجيبي السبتي: - مستفاد الرحلة والاعتراب، تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، سنة 1975، ص 20-21.

2- انظر نص الرسالة في مخطوط بمكتبة الأمبروزيانا بميلانو تحت رقم 115، ورقة 71-75. وتوجد صورة لها في خزانة الرباط. وراجع: د. أحمد مختار العبادي: - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ط1، الإسكندرية سنة 1968، ص 50-51 وهامش رقم 4 ص 50. وراجع كذلك: - أبو عبد الله التنسي: - تاريخ دولة الأدارسة وأخوتهم السليمانيين، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات عن مخطوط نظم الدر والعقيان، مجلة التاريخ بالمركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر، النصف الثاني من سنة 1980، ص 27-28 و 30.

بفضائل أهل البيت النبوي الذي ينتمي إليه ويصف التضحيات الغالية التي بذلوها. وذلك في إطار محاولات الأدارسة توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم استناداً إلى أصلهم الشريف وشرعيتهم في الحكم. ولا شك أن الإمام إدريس كان مدفوعاً إلى ذلك بما لاقاه من مشاعر طيبة من أهل مصر وصاحب البريد بها - واضح مولى صالح بن منصور الحميري - الذي دفع حياته ثمناً لذلك⁽²⁾.

ونجد آخر حكام الأدارسة الحسن بن كنون، بعد أن أطاح أمويو الأندلس بعرشه سنة 363هـ، يلجأ إلى مصر (365هـ) طلباً لمساعدة حاكمها الخليفة العزيز بالله الفاطمي. ولما كان الأخير منشغلاً بشؤونه الداخلية، عمل على إكرام وفادة ابن كنون وأتباعه الذين قارب عددهم سبعمائة رجل طيلة ثماني سنوات ثم أحال القضية إلى نائبه على إفريقية أبي الفتوح يوسف (بلكين) بن زيري. وهي المحاولة التي لم يقدر للحسن بن كنون النجاح خلالها، إذ إنه هزم والقوة التي خرجت معه من إفريقية في القتال الدائر بينهم وبين الجيش الأموي بالمغرب الأقصى، وقتل في هذه المعركة. فانتهت بذلك سلالة البيت الإدريسي في حكم المغرب الأقصى⁽¹⁾.

- وامتداداً لدورهم العظيم في مواجهة عقائد الفاطميين الشيعة بالمغرب، عمل الوافدون إلى مصر من أهل المغرب على تقويض محاولات الفاطميين ترويح عقائدهم بمصر، وذلك بالانتصار لمذهب أهل السنة وتنشيط دراساته من خلال الالتفاف حول علماء مدرسة مصر، خاصة من كان منهم "مبايناً لبني عبيد". ونجد السواد الأعظم لأولئك الوافدين يميلون لهذا النوع من المقاومة الذي أثبت نجاحاً كبيراً رغم أنه يندرج تحت عنوان المقاومة السلبية. بينما انفرد الفقيه السوسي محمد بن تومرت - مؤسس دولة الموحدين فيما بعد - بدور إيجابي في هذا الشأن متأثراً بلقائه بالفقيه المجاهد أبي بكر الطرطوشي نزيل ثغر الإسكندرية. وشرع في مهاجمة الأوضاع السائدة في المدينة بكل شدة وعنف "وجرت له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أفضت به إلى أن نفاه متولي الإسكندرية عن البلاد، فركب البحر". فلم يخرج من مصر إلا بعد أن ترك جماعة من أنصاره ومعتنقي مبادئه وعددهم 51 رجلاً، ذكر البيذق أسماءهم. ولوحظ أن كان منهم السكندري والفسطاطي والقلوبوي والدمياطي والإخميمي والإنساوي والفاوي والقناني. ويبدو أنهم كانوا السبب في ترويح شائعات عن قرب استيلاء الموحدين على مصر، وهو أمر عاينه الرحالة ابن جبير بنفسه⁽²⁾.

-
- 1- لمجهول: نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، نشر وتصحيح ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، سنة 1934، ج 1، ص 9 و14 و19.
 - 2- عبد الواحد المراكشي:- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الجمالية بمصر، ط 1 سنة 1914، ص 99؛ ابن جبير:- رحلة ابن جبير، تقديم د. محمد مصطفى زيادة، مطبوعات دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري (د.ت.)، ص 53.

وليس أدل على ذلك من الموقف المشرف للفقهاء الفاسي أبي العباس أحمد بن عبد الله ابن هشام اللخمي المعروف بالحطينة (نزىل الفسطاط والمتوفى بها في شهر المحرم سنة 560هـ). فقد عرض عليه الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله أن يتولى منصب قضاء القضاة بديار مصر وذلك خلال شهر ذي القعدة من سنة 533هـ). غير أنه رفض هذا المنصب بكل مغرياته لأنه سوف يحكم من خلاله وفق المذهب الشيعي، وأصر على الرفض رغم معاناته من ضيق الرزق. ورد جيران الفقيه الفاسي من أهل الفسطاط الجميل له بأن "أجمعوا رأيهم على أن يخطب أحدهم البنت التي له. وكان يعرف بالفضل بن يحيى الطويل. فتزوجها وسأل أن تكون أمها عندها، فأذن في ذلك". وقد علق المؤرخ القفطي على ذلك قائلاً: "وكان قصدهم تخفيف العائلة عنه. أما الشيخ فقد بقي منفرداً ينسخ ويأكل من نسخه"⁽¹⁾.

ومع وضوح الخطر الصليبي الذي تهدد منطقة الشام ومصر أخريات العصر الفاطمي ومعظم العصر الأيوبي، ظهرت لهؤلاء الوافدين من أهل المغرب أدوار معلومة في مجاهدة هذا الخطر. ونخص بالذكر منهم ذلك الأمير المرابطي الذي أكد ابن الأثير على مشاركته في دفع الصليبيين عن عسقلان (رمضان 492هـ)⁽²⁾. وقد وضع دور هؤلاء الوافدين في الدفاع عن ثغر الإسكندرية ضد إغارة الصقليين عليها (شهر ذي الحجة من سنة 569هـ). وأكد ابن جبير على اشتراك: "أجناد من المغاربة البحريين" ضمن القوة العسكرية التي خرجت من الموانئ المصرية على البحر الأحمر لردع محاولات الصليبيين تهديد موانئ الحجاز (أواخر سنة 578هـ). وقد توسع السلطان صلاح الدين الأيوبي في الاعتماد على المغاربة في عمليات القتال البحري عند محاصرته لموانئ الشام الواقعة تحت سيطرة الصليبيين. واشتهر في هذا المجال القائد عبد السلام المغربي أحد قادة الأسطول المصري أثناء محاولة حصار عكا وغيرها من موانئ الشام.

ولا ننسى في هذا المجال إقدام السلطان صلاح الدين الأيوبي على الاستغاثة بالخليفة الموحي المنصور أبي يوسف يعقوب، أملاً في الحصول على نجدات مغربية

1- ابن خلكان:- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1948، ج 1، ص 152-153، المقريزي:- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 3 تحقيق محمد حلمي محمد، ص 172، ابن تغري بردى:- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، ج 5، ص 370؛ السيوطي:- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج 1، ص 453. وقارن:- القفطي:- إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، ج 1، ص 39.

2- ابن الأثير:- الكامل في التاريخ، طبعة مصر، سنة 1290هـ، ج 10، ص 155، ود. أحمد مختار العبادي:- دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، مقال في ندوة الحضارة الإسلامية، منشورات مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية، سنة 1983، ص 83-84.

حربية وبحرية تعينه على صد الخطر الصليبي الجارف. وقد لوحظ أن هذا الأمر كان له صدى طيب في نفس الخليفة الموحي، رغم انشغاله هو الآخر بحروبه ضد الأسبان، فأوعز إلى العديد من هؤلاء الوافدين من الحجاج والدارسين بأن يستمروا على موقفهم المشرف في نصرة إخوانهم المسلمين بالمشرق⁽¹⁾.

وأوضح الأمثلة على ذلك ما فعله الفقيه المغربي أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الله الجزولي، الذي أثر الجهاد على الاستمرار في عمله قاضياً بمدينة البهنسا - من عمل محافظة المنيا حالياً - وغيرها من مدن الصعيد الأدنى. وانضم للمتطوعين أثناء محاولة استرداد مدينة دمياط من أيدي الصليبيين في حملتهم المعروفة بالحملة الصليبية الخامسة "وتوفي شهيداً بظاهر دمياط". وذلك في شهر ذي القعدة سنة 616هـ⁽²⁾.

وهكذا استمر الوجود المغربي في مصر شاهداً على ودية العلاقات السياسية بين الحكومات المتعاقبة في الإقليمين. وها هي فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون المملوكي وخلفائه تشهد تقدماً كبيراً في العلاقات مع بني مرين حكام المغرب الأقصى الذين كانوا ينتهزون خروج ركب الحاج المغربي إلى مصر لإرسال هداياهم وبعوثهم إلى المماليك دعماً لروح الود والتعاون بين الجانبين فيما أشكل من أمور. ففي سنة 704هـ وصل إلى مصر ركب حج مغربي يضم سفارة سياسية أرسلها السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المريني صاحب مراكش وفاس إلى الناصر محمد بهدف إعلامه بانتصار المرينيين على بني عبد الواد حكام تلمسان بالمغرب الأوسط، وأن طريق المغرب أصبح ممهداً لمسير قوافل الحج والتجارة بين البلدين⁽³⁾. وتلا ذلك وصول قافلة حج أخرى إلى مصر في سنة 705هـ قدمت في فوجين:- الأول في شهر ربيع الآخر، والثاني في شهر شعبان. وقد حمل أفراد الفوج الأول معهم مصحفاً كريماً رائع الصنعة أمر أبو يعقوب المريني بإعداده ووقفه على الحرم الشريف. وقد احتفى الناصر محمد بهذه السفارة المغربية، ورد بسفارة مماثلة وصلت تلمسان في جمادى الآخرة 706هـ حيث احتفل السلطان أبو يعقوب بوصولهم احتفالاً عظيماً وأرسلهم إلى نواحي المغرب الأقصى لتفقد معالم الدولة وأثارها. وفي تلك الأثناء توفي السلطان أبو

1- د. أحمد عبد اللطيف حنفي:- الدور السياسي والحضاري للمغاربة والأندلسيين في مصر (رسالة الدكتوراه)، ص 14-15.

2- المنذري:- التكملة لوفيات النقلة، تحقيق د. بشار عواد معروف، مطبوعات مؤسسة الرسالة ببيروت، ط 5 سنة 1981، ج 2، ص 485-486.

3- بيبيرس الدوادار:- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج 9 تحقيق د. زبيدة محمد عطاء، مطبوعات شركة المدينة للطباعة والنشر بالرياض، ص 361-362. ولاحظ أن المؤرخ ابن أبي زرع الفاسي (الأنيس المطرب، ص 268) قد انفرد بالإشارة إلى أن السفارة المغربية كانت رداً على سفارة مملوكية سبق أن أرسلها الناصر محمد بن قلاوون إلى أبي يعقوب يوسف المريني.

يعقوب يوسف، فقام خليفته السلطان أبو ثابت عامر بمتابعة إكرام الوفد المملوكي وقدم لأعضائه عند عودتهم هدايا كثيرة دعماً للعلاقات بين البلدين⁽¹⁾. كذلك فعل السلطان المريني أبو الحسن علي ابن أبي سعيد عثمان عندما أرسل سفارة من جانبه إلى مصر في سنة 737هـ لإعلام الناصر محمد بن قلاوون بانتصاره على بني عبد الواد الزناتيين واستيلائه على عاصمتهم تلمسان، وزوال العقبات التي كانت تعترض طريق الحج والتجارة بين مصر والمغرب. وتلا ذلك وصول ركب حج مغربي في 22 رمضان سنة 738هـ ضم كبار رجال الدولة المرينية ومعهم السيدة الحرة مريم زوجة والد السلطان أبي الحسن التي قدمت للحج. وقد احتفى الناصر محمد بأفراد هذه القافلة احتفاءً أكد علاقات الود بين البلدين. وتكرر الأمر بعد ذلك في سنة 745هـ، عندما أرسل السلطان أبو الحسن المريني سفارة أخرى إلى نظيره المملوكي الصالح إسماعيل بن الناصر محمد لتقديم واجب العزاء في وفاة الناصر محمد، وإطلاع الصالح إسماعيل على حقيقة القتال الدائر بين مسلمي الأندلس والأسبان ومحاولات السلطان المريني مساعدة المسلمين هناك. وقد ضمت هذه القافلة كذلك السيدة الحرة مريم التي قدمت للحج مرة ثانية. ورد الصالح إسماعيل على رسالة السلطان أبي الحسن برسالة أخرى مؤرخة في 6 رمضان سنة 745هـ، أوضح خلالها مدى تعاطفه مع مسلمي الأندلس، وأنه لبعد المسافة لا يملك غير الدعاء لهم بالنصر⁽²⁾.

وتخلل هذا حضور بعض اللاجئين السياسيين من كبار الشخصيات المغربية إلى مصر، سواء للإقامة أو للحصول على مساعدة المماليك في استعادة عروشهم بالمغرب. مثل:- أبي دبوس عثمان بن إدريس الكومي - من ولد عبد المؤمن بن علي الموحي - الذي حضر إلى مصر في سنة 715هـ بعد خلع من حكم قابس. واستمر مقيماً بمصر بعد حصوله على إقطاع يدر عليه دخلاً ثابتاً وصار يركب مع أفراد الجيش المملوكي في المناسبات المختلفة حتى توفي في سنة 731هـ. فخلفه ابنه أبو العباس أحمد بن أبي دبوس، المولود بالقاهرة سنة 722هـ، في إقطاعه بمصر. بيد أنه خرج من مصر في أواخر سنة 736هـ إلى المغرب محاولاً استعادة عرش أجداده الموحيين بمراكش. فقبض عليه بتونس وأقام في الاعتقال إلى شهر رجب سنة 747هـ حيث أفرج عنه، فعاد ثانية إلى مصر. ثم إنه خرج منها للمرة الأخيرة إلى تونس حيث انضم إليه عربان تلك النواحي وتمكن بواسطتهم من حصار تونس وكاد أن يستولي عليها من حكامها المرينيين آنذاك. وقد انتهت حركته بالفشل بعد أن انفض عنه حلفاؤه، وقبض عليه وحمل إلى فاس عاصمة المرينيين حيث سجن بعض الوقت، ثم

1- ابن خلدون:- العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بيروت، 1983م، ج3، ص 468-470.

2- المصدر نفسه والجزء ص 551-553، المقرئ التلمساني:- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 1 القاهرة 1949م، ج 6، ص 120-129.

أطلق سراحه وأخذ ينتقل في البلاد ما بين المغرب والأندلس حتى توفي بمدينة فاس في سنة 762هـ⁽¹⁾.

وتكرر الأمر بحضور أحد خصوم السلطان أبي الحسن المريني، وهو أبو محمد عبد الله بن تافراجين الوزير الحفصي، ولجؤه إلى الإسكندرية خلال سنة 749هـ. وقد أكد الرحالة المشهور ابن بطوطة أنه اطلع أثناء وجوده بالإسكندرية على محاولة اغتيال ابن تافراجين بواسطة مجموعة من المغاربة أرسلهم السلطان أبو الحسن لهذا الغرض، ولكنهم فشلوا. ويبدو أن ذلك قد أحفظ الإدارة المملوكية في شخص الأمير بَيْتُغَا أرس القاسمي نائب السلطنة آنذاك، فعمل على استقدام الوزير ابن تافراجين إلى القاهرة وأنزله في ضيافته الشخصية. ثم إنه دبر أمر إخراجه إلى الحجاز في موسم حج سنة 750هـ بحجة تمكينه من أداء فريضة الحج وجهزه بما يلزم، وفي الحقيقة كي يتفادى حدوث أزمة سياسية قد تنشأ مع السلطان أبي الحسن المريني الذي أرسل طلباً رسمياً بتسليم ابن تافراجين. ويبدو أن هذا الحادث كان سبباً في فتور العلاقات بعض الشئ بين المرينيين والمماليك، الأمر الذي أشار إليه د. محمد عيسى الحريري في دراسته عن بني مرين، دون ذكر السبب⁽²⁾.

بيد أن الوجود المغربي في مصر لم يتأثر البتة بهذه الأزمة الدبلوماسية، ولا غيرها من حوادث اللجوء السياسي التي حذا أصحابها من كبار الشخصيات المغربية حذو ابن تافراجين. مثل محمد بن ثابت بن عمار - أمير طرابلس الغرب - الذي هادن أبا الحسن المريني إثر غزوه لمملكة تونس الحفصية (748هـ) وأظهر ولاءه له، بينما استعد لمغادرة البلاد بأمواله وذخائره إلى الإسكندرية. وبالفعل نقل ابن ثابت أمواله وبعض إخوته إلى الإسكندرية تمهيداً للحاق بهم، إلا إنه اغتيل بيد بعض خصومه في قضية ثار عند باب داره بطرابلس. ورغم أن خلفاء ابن ثابت في حكم طرابلس وبقية أسرته بالإسكندرية قد خلعوا طاعة المرينيين وأعلنوا ولاءهم للأسرة الحفصية ملوك تونس الأصليين، إلا أننا لم نسمع عن أية عمليات انتقامية من جانب المرينيين ضد الفارين من إخوة محمد بن ثابت بالإسكندرية، وذلك حرصاً على علاقات الود بين الدولتين، على ما يبدو⁽³⁾. ومثل الأمير محمد بن أبي عبد الرحمن

1- نفسه والجزء، ص 572، ابن حجر العسقلاني:- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق، مطبوعات دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ط 2 سنة 1966-1967، ج 3، ص 440-441.

2- المقرئ:- المقي (مخطوط بدار الكتب المصرية، ج 2 رقم الميكروفيلم 15025 تاريخ)، ورقة 179ب-180أ؛ ابن حجر:- الدرر الكامنة، ج 2، 348. وراجع:- د. محمد عيسى الحريري:- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، مطبوعات دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط 1 سنة 1985، ص 209.

3- ابن خلدون:- العبر، ج 12، ص 836-837 و 963.

بن أبي الحسن المريني، الذي ناوى عمه السلطان أبا عامر تاشفين بن أبي الحسن على السلطة بنواحي فاس، ابتداء من شهر صفر سنة 763هـ "فكانت له حروب آلت إلى خروجه إلى مصر. فحج ورجع فمات"⁽¹⁾. ومثل الأمير عبد الحليم - المعروف بحليم - بن أبي علي عمر، أخي السلطان أبي الحسن علي المريني، الذي تخلى لأخيه عبد المؤمن عن حكم مدينة سجلماسة مؤثراً السلامة وتجنب الفتنة. وارتحل إلى المشرق بغرض الحج سنة 766هـ، فدخل القاهرة صحبة ركب الحج التكروري ونزل ضيفاً على الأمير يلغا الخاصكي المتغلب على دولة السلطان المملوكي الأشرف شعبان. وقد أكرم الأمير يلغا وفادة الضيف المغربي ووسع نزله وجرايته وأدرّ لحاشيته الأرزاق. وطالت إقامة الأمير عبد الحليم بمصر بعض الوقت، وتزوج بإحدى السيدات المصريات وهي السيدة اتفاق الصالحية التي كانت زوجة لأحد الوزراء المصريين. ثم إنه خرج للحج، وعند عودته جرى تجهيزه للعودة إلى المغرب ولكنه توفي عند وصوله مدينة تروجة - من أعمال محافظة البحيرة حالياً - وذلك أوائل ربيع الأول من سنة 767هـ. وتكرر ذات الشيء مع ابنه محمد الذي كان قدنودي به سلطاناً على سجلماسة في سنة 789هـ، ثم خلع عن الحكم وتوجه إلى المشرق بغرض الحج، فدخل القاهرة وأقام بها منشغلاً بتدبير معاشه حتى توفي في سنة 810هـ⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى استمرار الدور الذي لعبه الوافدون المغاربة في الجيش والأسطول بمصر. وها هو السلطان الظاهر بيبرس يستعين بصناع مهرة منهم في عمل منجنيقات مغربية الصنع أثناء هجومه على الصليبيين بمدينة قيسارية وأرسوف من أعمال الشام أوائل شهر جمادى الأولى سنة 663هـ. واشتهر كذلك في قيادة الأسطول المصري الرئيس شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الهواري كأحد رؤساء البحر بدار صناعة الإسكندرية، وجمال الدين مكي بن حسون قائد الحملة البحرية التي أرسلها بيبرس للإغارة على جزيرة قبرص (شوال 669هـ). وهي الحملة التي كانت تضم كذلك الرئيس شهاب الدين أبا العباس المغربي⁽³⁾. ومنهم الرئيس البطراني المغربي قائد بعض وحدات الأسطول المملوكي عند الاستيلاء على جزيرة أرواد وطرده الصليبيين منها في سنة 702هـ⁽⁴⁾. ومنهم الرئيس ميمون المغربي المعروف بالأحول قائد أحد المراكب في الأسطول المملوكي الذي تعرض للأسر هو وبحارته أثناء مقاومتهم إحدى غارات القبارصة على السواحل المصرية سنة 761هـ.

-
- 1- ابن حجر: إنباء الغمر بآنباء العمر، تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة 1969-1972، ج1، ص44.
 - 2- ابن خلدون:- العبر، ج 3، ص 664-665؛ ج 14، ص 749؛ المقرئزي:- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 3 ق 1، تحقيق د. سعيد عاشور، طبعة دار الكتب المصرية، ص 100 و 108.
 - 3- ابن عبد الظاهر:- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، طبعة الرياض 1976، ص 230-231 و 386-388.
 - 4- ابن تغرى بردى:- النجوم الزاهرة، ج 8، ص 156-157.

وقد روى المؤرخ العيني قصة نجاته بمركبه وفراره من ميناء قبرص في ذات السنة بشكل يدل على جرأته ومعرفته الجيدة بعلم الملاحة وحركة الرياح⁽¹⁾.

بيد أن أوضح دليل على إخلاص هؤلاء المغاربة في نصرة قضايا الدين قد ظهر أثناء تعرض الإسكندرية لإغارة القبارصة شهر المحرم سنة 767هـ وفي أعقابها. وذلك من خلال اشتراك أعداد من المتطوعة المغاربة ضمن الحملة التي جرى إعدادها لغزو جزيرة قبرص انتقاماً لما حدث بالإسكندرية. ويشير المقرئ في ذلك إلى إن الأمر صدر إلى العامة "بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله، إلى بيت الأمير يلغا الأتابك، للعرض وأخذ النفقة للسفر في المراكب. فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر وكتبت أسماؤهم وقررت لهم المعاليم، وأقيمت لهم نقباء (مندوبون) وقاموا في مساعدة صناع المراكب...."⁽²⁾. ويذكر في هذا المجال السلاح الجديد الذي عرضه أحد المغاربة على حاكم الإسكندرية، وهو عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفهام مملوءة بالجير الناعم المطفى بالبول، وكانت الواحدة منها ملء الكف في قدر ثمرة الرمان مسدودة الفم الضيق (كالقنبلة اليدوية الآن). ثم حكى هذا المغربي لحاكم الإسكندرية كيفية استعمال هذا السلاح ومدى تأثيره وإنه استخدمه شخصياً أثناء هجوم مركب للإفرنج على مركب أقلته وجماعة من المسلمين أمام ساحل طرابلس الغرب. وقد أعجب حاكم الإسكندرية بهذا السلاح وأمر الخزافين بصنع مثله، فعملوا نحو عشرة آلاف واحدة وتم تخزينها بقصر السلاح بمدينة الإسكندرية لوقت الحاجة⁽³⁾. ويعد الدور الذي قام به الرئيس إبراهيم التازي - رئيس دار الصناعة بالإسكندرية - في تأمين المدينة ضد إغارات القبارصة والجنوية والبنادقة بين سنتي 769-770هـ أبرز الأمثلة على ذلك. وقد عد المؤرخ النويري السكندري المغربي الأصل أربع عمليات جهادية شنها هذا المجاهد الكبير في شهور ربيع الآخر، وجمادى الأولى، ورجب، وذي الحجة من سنة 769هـ. وقد أغار في ثالثها على جزيرة قبرص ذاتها وعاد بغنائم كثيرة أثلجت صدور الكثير من أهالي الإسكندرية والإدارة المملوكية التي كانت أوفدته لهذه المهمة الصعبة. وختم هذا المؤرخ روايته بالعبرة التالية "لأن الفرنج ليس يقهرهم سوى المغاربة، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر. فلو كان منهم بالإسكندرية - من المغاربة - جمع كبير بجوامك (أعطيات ومرتبات) مرتبة وغربان مجهزة بعددها وأزوادها، كانوا يخربون جزراً كثيرة

1- العيني:- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث سنة 761هـ (مخطوط رقم 35341 تاريخ)، ورقة 118.

2- المقرئ:- السلوك، ج 3 ق 1، ص 129.

3- د. أحمد مختار العبادي:- تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ج 1 في مصر والشام، ص 323-325.

وصارت الفرنج معهم في جريرة"⁽¹⁾. ومنهم كذلك الرئيس نور الدين على المسلاتي أحد قادة الأسطول المملوكي الذي أرسله السلطان قانصوه الغوري لقتال البرتغاليين واستعادة طريق رأس الرجاء الصالح (سنة 911هـ/914هـ)⁽²⁾. وأيضاً الرئيس حامد المغربي الذي قام بجهد رئيسي في تطهير الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط من إغارات الفرنج خلال سنة 917هـ. ثم أوفده السلطان قانصوه الغوري إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية لشراء لوازم الأسطول من أخشاب وحبال ومدافع وذلك في سنة 918هـ. وقد نجح الرئيس حامد في مهمته وعاد إلى مصر في شهر رمضان من تلك السنة بعد أن حظي بكرم السلطان العثماني سليم الأول الذي أمر بتجهيز الأدوات المطلوبة في مراكب شحنها إلى مصر⁽³⁾.

ومما تميز به هؤلاء الوافدون إلى مصر من أهل المغرب الأقصى حرصهم على تقويم ما أعوج من سياسات الحكام إعمالاً للقاعدة الشرعية "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وإن تعرضوا لما لا يحمد عقباه. ولا ننسى ركب الحج المغربي الشهير الذي قدم مصر في شهر رجب من سنة 700هـ وكان يضم أحد وزراء السلطان المريني أبي يعقوب يوسف سلطان مراكش. فقد لاحظ هذا الوزير أن مكانة الموظفين من أهل الذمة في مصر قد فاقت بعض الشيء ما لنظرانهم المسلمين، مما أثار غيرته على الدين وشكا لكبار الأمراء في مصر ما رآه. وترتب على ذلك أن صدر مرسوم من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في ذات الشهر، يحد من الامتيازات المعطاة لأهل الذمة بمصر. وأكد هذه النظرة مجموعة الفتاوى التي أدلى بها الفقيه الدكالي شمس الدين أبو أمامة محمد بن محمد بن علي ابن عبد الواحد بن النقاش نزيل مصر (والمتوفى بها في سنة 763هـ) في هذا الشأن وجمعت في مؤلف بعنوان "المذمة في استخدام أهل الذمة"⁽⁴⁾. وخير مثال لذلك ما فعله كمال الدين محمد بن محمد الإسكندراني المغربي الأصل المعروف بابن التنسي (نسبة لمدينة تنس الساحلية على البحر المتوسط مما يلي مراكش) الذي كان يعمل نائباً لقاضي المالكية بثغر الإسكندرية خلال سنة 727هـ. وهو أحد أفراد أسرة بني التنسي المغاربة الأصل الذين

1- النويري السكندري:- الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 1449 تاريخ ونسخة ميكروفيلمية أرقام 10546 و 12745، ورقات 67أ - 68ب، 97ب-98ب، 101أ-103ب، 274ب-277ب.

2- ابن إياس:- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق د. محمد مصطفى، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982-1984، ج 4، ص 85 و 116 و 131.

3- المصدر نفسه والجزء، ص 220 و 285.

4- المقرئ:- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ق 3 تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، طبعة دار الكتب المصرية، ص 909-910 وابن النقاش:- المذمة في استخدام أهل الذمة، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1693 فقه شافعي وعنها نسخة ميكروفيلمية رقم 18813، ورقات 79-98.

وفد جدهم ابن العز التنسي من بلاد المغرب وعمل نائباً لقاضي المالكية بثغر الإسكندرية منذ 3 ربيع الآخر سنة 648هـ. بينما جدهم الأعلى كان بربرياً يدعى بُبلي. فقد حدث في شهر رجب من سنة 727هـ فتنة أودت بحياة بعض أهل الثغر بسبب تعرضهم لتاجر إفرنجي أراد أحد الصبيان بسوء. فتصدى لهم والي المدينة وأعوانه مما أهاج مشاعر الناس. وتطور الأمر إلى أن أرسل السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون من العاصمة بعض كبار قاداته وفيهم وزيره إلى الإسكندرية وأمرهم بالتشدد في معاملة المتسببين في الشغب. وبرز دور ابن التنسي في مواجهة أعمال العنف التي مارسها الوزير ضد الأهالي وإهانتته لقاضي الثغر ومعاونيه قائلًا "ما يلزمنا شيء، فلا تهن الشرع". فكان جزاؤه أن "بطحه الوزير وضربه غير مرة"⁽¹⁾. وقد عقب أحد نزلاء الثغر من أهل طرابلس الغرب علي هذه الحادثة قائلًا "إنا لله وإنا إليه راجعون فيما أصاب المسلمين بثغر الإسكندرية من الإخراق والضرب وأخذ الأموال وسفك الدماء فالله يعظم لنا ولكم الأجر"⁽²⁾.

وهكذا استمر الوجود المغربي في مصر شاهداً على ودية العلاقات بين حكومات وشعوب الإقليمين، الأمر الذي أدى إلى ترسيخ الهوية الإسلامية العربية لدى الجميع.

1- عن ابن التنسي انظر:- ابن حجر:- الدرر الكامنة، ج 4 ، ص 348. وعن هذه الحادثة انظر:- الذهبي:- دول الإسلام، جزآن، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1974، ج 2 ، ص 235-236.

2- ابن الوردي:- تاريخ ابن الوردي المسمى تنمة المختصر في أخبار البشر، طبعة مصر سنة 1285هـ، ج 2 ، ص 281 - 285.